﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾﴾ [العنكبوت: 51]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

معجزة القرآن عقليّة لا حسّيّة، خالدة خلود الدّهر

بعد أنْ ذكر في الآية السّابقة سفاهة الجاحدين، ووقاحتهم، وما قالوه، وما طالبوا به الرّسول أنْ يأتيهم به من آياتٍ كآيات موسى، فأنكر عليهم في هذه الآية بقوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ فكتاب اللّه القرآن أعظم من جميع آيات الأنبياء السّابقة؛ لأنّه معجزة عقليّة لا حسّيّة؛ وجاءت لكلِّ من له عقل، فهي خالدةٌ خلود الدّهر.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿يَكْفِهِمْ﴾: (كفا) أَصْلٌ صَحيحٌ يَدُلُّ عَلَى الحَسْبِ الَّذي لا مُسْتَزادَ فيهِ، يُقالُ: كَفاكَ الشَّيْءُ يَكْفيكَ، وقَدْ كَفَى كِفايَةً، إذا قامَ بِالْأَمْرِ، والْكُفْيَةُ: الْقوتُ الْكافي، والْجَمْعُ كُفًى[1]، فالكِفايَةُ: ما فيه سدّ الخُلّة وبلوغ المراد في الأمر، قال تعالى: ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٧٩﴾﴾ [النّساء: 79] أي: اكْتَفِ باللّه شهيدًا[2]، وكل ما في القرآن من هذا التّركيب فهو بمعنى الإغناء وعدم الاحتياج[3]، وكذلك قوله تعالى في الآية: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ والمعنى يكفي شهادةً وصدقًا أنّ اللّه أنزل الكتاب عليك، فسدَّ خُلّتهم وقضى مرادهم بإنزاله الكتابَ على رسوله المبعوث إليهم رحمةً مهداة.

2) ﴿وَذِكْرَىٰ﴾: (ذكر) أَصْلانِ، عَنْهُما يَتَفَرَّعُ كَلِمُ الْبابِ، فمن الأوّل: المُذْكِرُ، وهي الَّتي ولَدَتْ ذَكَرًا، ومن الثّاني: ذَكَرْتُ الشَّيْءَ،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (كفا).
(2) الراغب، المفردات: (كفى).
(3) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (كفى).

خِلافُ نَسيتُهُ، ثُمَّ حُمِلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ بِاللِّسانِ، ويَقولونَ: اجْعَلْهُ مِنْكَ عَلَى ذُكْرٍ، بِضَمِّ الذّالِ، أيْ لا تَنْسَهُ[1]، والذِّكْرُ: جَرْيُ الشّيء على لسانك، والذِّكْرُ: الكتاب الّذي فيه تفصيل الدّين، وكلّ كتاب للأنبياء ذِكْرٌ، والذِّكْرُ: الصّلاة، والدّعاء، والثّناء، والأنبياء إذا حزبهم أمرٌ فزِعوا إلى ذكر اللّه، أي: الصَّلاة[2]، وتكون الذِّكْرَى بِمَعْنى الذِّكْر، كما في آية العنكبوت في قَوْله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وتكون بِمَعْنى التَّذكير كما في قَوْله تعالى: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُو۟لِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦﴾ [ص: 45 - 46][3].

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

إعلام بأنّ القرآن فيه من الآيات للنّاس جميعًا

الآية رَدٌّ من القرآن عن سؤالهم الرّسولَ ﷺ أن يُنزّل عليهم آياتٍ مثلَ آيات موسى وعيسى وسائر الأنبياء؛ فرَدَّ اللّه عليهم فقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ أي: أولم يكفهم منَ الآيات ما أنزلنا من القرآن؛ يُتلى عليهم، فيه خبرُ ما بعدهم وما قبلهم، وفي إنزال الكتاب عليك رحمةٌ لمن آمن وعمل به، وذِكْرى وتذكيرٌ وموعظةٌ، لقوم يؤمنون[4].

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

نكتة فصل الآية عن سابقتها:

الاستئناف ردًّا على اقتراحِهم، وبيانًا لبُطلانِ رأيهم

الآية ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ فُصِلتِ عمّا قبلها للاستئناف؛ فالكلام واردٌ من جهتِه تعالى ردًّا على اقتراحِهم، وبيانًا لبُطلانِه، والهمزةُ للإنكارِ والنَّفي،

(1) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (ذكر).
(2) الخليل، العين: (ذكر).
(3) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ذكر).
(4) الواحديّ، التّفسير الوسيط: 3/ 423.

والواوُ للعطفِ على مُقدَّرٍ يقتضيه المقامُ؛ أي: أقَصُرَ ولم يكفِهم آيةٌ مُغْنِيَةٌ عن سائرِ الآياتِ؛ إذْ إنَّا أنزَلْنا عَلَيْكَ الكتاب النّاطقَ بالحقِّ المصدِّق لِما بين يديهِ من الكتبِ السَّماويَّةِ وأنتَ بمَعْزِلٍ عن مدارستِها وممارستِها؛ وهو يُتلى عَلَيْهِمْ في كلِّ زمانٍ ومكانٍ؛ فلا يزالُ معهم آيةٌ ثابتةٌ لا تزولُ ولا تضمحلُّ؛ كما تزولُ كلُّ آيةٍ بعدَ كونِها، وتكونُ في مكانٍ دونَ مكانٍ، أو يُتلى على اليهودِ بتحقيقِ ما في أيديهم من نعتِك ونعتِ دينِكَ[1].

نوع الاستفهام وغرضه:

تَعَجُّبيٌّ لإنكار نفيهم معجزةَ القرآن

قوله: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾؛ كلام مستأنف وارد من جهته تعالى؛ ردًّا على اقتراحهم وبيانًا لبطلانه، والهمزة للإنكار والنّفي، والواو للعطف على مقدّر يقتضيه المقام[2]، والاستفهام تَعَجُّبيّ إنكاريّ؛ لإنكار النّفي وإثبات المنفي، والمعنى: هلّا يكفيهم من الآيات آيات القرآن؟ فإنَّ كلَّ مقدار من مقادير إعجازه آيةٌ على صدق الرَّسول ﷺ، ويرى ابن عاشور في إحصاءٍ مُيسّر أورده في تفسيره؛ أنّ آيات القرآن وهي زهاءُ ستة آلاف آية، ومقدارُ كلِّ ثلاث آيات مقدارٌ مُعْجِزٌ، فيحصل من القرآن مقدارُ أَلْفَيْ معجزةٍ وذلك لم يحصل لأحدٍ من رسل الله[3].

فائدة الاستفهام في ردّ مقالتهم:

الاستدلال على جواز تتبّع التّوراة ونحوها أو منعه

الظّاهر كون ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ جوابًا لقولهم في الآية: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَٰتٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾، وعليه تكون الآية دليلًا لمن منع تتبّع التّوراة ونحوها، وهذا المنع قالت به عائشة ﵂، ولعلّ المنع من ذلك هو عند خوف الفساد في الدّين؛ وذلك ممّا لا شبهة فيه في صدر الإسلام[4].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 43.
(2) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 7.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 14.
(4) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 8.

نكتة التّعبير بالمضارع ﴿يَكۡفِهِمۡ﴾:

معجزات القرآن متجدّدة مع الزّمان

أفاد التّعبير بالمضارع في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ﴾ بيان ما سيكون من القرآن من معجزات مستقبليّة، إذ إنّ إعجاز القرآن متجدّد مع الزمن، مستمرٌّ عطاؤه إلى قيام السّاعة، لقوله تعالى بعدها: ﴿أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾؛ فتلاوته عليهم دلّت على تجدّد عطائه للنّاس جميعًا؛ فحُقَّ أنْ لا تَفْنى عجائبُه، ولا تنقضي بدائعُه ما دام يُتلى وتُتَدبَّر آياتُه.

عود الضّمير في ﴿يَكۡفِهِمۡ﴾:

خطاب الإغناء عامّ للنّاس كافّة

قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ﴾؛ أي: أهل الكتاب بتحقيق ما في أيديهم من نعتك ونعت دينك، وله وجهٌ إن كان ضميرُ ﴿وَقَالُواْ﴾ فيما تقدّم يعود على أهل الكتاب، ووجه آخر أنّه يعود على كفّار قريش[1]، وعلى هذا يكون خطابًا خاصًّا بأولئك المعاصرين للرّسالة والتّنزيل، وهو عامّ للنّاس كافة على مدى العصور والدّهور.

وجوه الإعجاز في قوله: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ﴾:

فُضِّل القرآنُ على سائر الكتب السّماوية، وعلى سائر معجزات الأنبياء السّابقين

معنى قوله تعالى: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ أَنَّآ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ يُتۡلَىٰ عَلَيۡهِمۡۚ﴾: أنّ إنزال الآية إنْ كان شرطًا فقد أُنزلت الآية وهي القرآن؛ فإنه معجزة ظاهرة باقية، وقوله: ﴿أَوَلَمۡ يَكۡفِهِمۡ﴾ عبارة تُنبئ عن كون القرآن آيةً فوق الكفاية، ويذكر الفخر الرّازي في تفسيره وجوه معجزة القرآن، وكونها أتمَّ ممّا سبقه من الكتب لوجوه: أحدها: أنّ تلك المعجزات وُجِدَتْ ومادامت فإنّ قَلْبَ العصا ثعبانًا، وإحياء الميّت، لم يبقَ لنا منه أثر، فلو أنّ واحدًا لم يكن يؤمن بكتب الله، ويكذّب بوجود هذه الأشياء فلا يمكن وقتئذٍ إثباتُها معه بدون الكتاب، وأمّا القرآن فهو باقٍ؛ لو أنكره واحد فنقول له: فأتِ بآيةٍ من مثله، الثّاني:

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 7.

هو أن قَلْبَ العصا ثعبانًا كان في مكان واحد، ولم يره من لم يكن في ذلك المكان، وأمّا القرآن فقد وصل إلى المشرق والمغرب، وسمعه كلّ أحد، وها هنا لطيفةٌ وهي أنّ آيات النّبيّ ﷺ كانت أشياءَ لا تختصّ بمكان دون مكان؛ لأنّ من جملتها انشقاق القمر، وهذا الانشقاق يعمّ الأرض؛ لأنّ الخسوف إذا وقع عمّ، وذلك لأنّ نبوّته كانت عامّة لا تختصّ بقُطر دون قُطر، وغاضت بحيرة ساوة في قُطر، وسقط إيوان كسرى في قُطر، وانهدَّت الكنيسة بالرّوم في قُطر آخر؛ إعلامًا بأنَّه يكون أمرٌ عامٌّ[1].

سرّ التّعبير بالضمير ﴿أَنَّآ﴾:

إنـــزال الكـتـاب مخصوصٌ بالله تعالى

التّعبير بضمير العظمة (نا) مؤكّدًا بـ(أنَّ)، دون التّعبير به مضافًا إليه (أولم يكفهم إنزالنا) يدلّ على توكيد تخصيص الإنزال به تعالى، وقصرِه عليه سبحانه، أي: أنزلنا عليك الكتاب بما لنا من العظمة الّتي تتقاصر دونها كلُّ عَظَمَةٍ[2]، وفيه مع التّشريف للمُنزَّل، دفعٌ لأدنى شكٍّ بعدم إنزاله منه تعالى.

نكتة التّعبير بالماضي مع إسناده إلى ضمير العظمة:

تعـظـيـم شـأن إنـــزال الـكـتـاب على رسـول الله ﷺ

دلّ الفعل الماضي (أنْزَل) في قوله تعالى: ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾ على وقوع الحدث في الزَّمن الماضي، فضلًا عمّا فيه من تأكيد حقيقة إنزال الكتاب عليه ﷺ، وتحقّق وقوعه، ودلّ ضمير العظمة (نا) في الفعل ﴿أَنزَلْنَا﴾ على القدرة والإحاطة؛ لأنّه كلام الله تعالى؛ إذ أسند إنزال الكتاب إلى ضمير العظمة (نا) ليُعلم شأن هذا الكتاب، وعظيم ما فيه، ومن أسرار هذا المعنى، أنَّ ضمير العظمة يأتي في كلام الله، ولا يأتي في كلام الأنبياء حين يخبرون عن ربهم.

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 65.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 5/ 387.

نكتة استعمال ﴿عَلَيْكَ﴾ لا (إليك):

قال تعالى: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ﴾ وقال فيما سبق: ﴿أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ﴾ ومناسبة ذلك أنّه مع البناء للفاعل المعلوم في ﴿أَنزَلْنَا﴾ فإنّ الكلام لمن هو في استعلاءٍ تامٍّ على خلقه، وهو الله ﷻ، فناسب تعدية فعل الإنزال بحرف الاستعلاء (على)؛ فقال: ﴿عَلَيْكَ﴾، أمّا مع البناء للمفعول غير الصّريح وغير الظّاهر فقال ﴿إِلَيْكَ﴾، تناسبًا مع عدم التّصريح باسم الفاعل.

مناسبة الاستعلاء للفعل المبني للفاعل، بخلاف الفعل المبني للمفعول

غرض تقديم شبه الجملة ﴿عَلَيْكَ﴾:

نكتة تقديم شبه الجملة ﴿عَلَيْكَ﴾ في قوله: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ لفائدة الاهتمام بما أُنزِل على رسول الله ﷺ، فالرّسول هو محور المعجزة؛ والمعجزة هي الكتاب المهيمن على ما سبقه من الكُتب، وهذا التّقديم للمجرور لفائدة الاختصاص والتّعريض بالمشركين الّذين اقترحوا الآيات وطالبوا بها.

الرّسول ﷺ هو محور قضيّة الجدال

معنى (أل) في ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾:

(أل) في قوله: ﴿أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ﴾؛ للعهد، وهو القرآن من بين الكتب السّماويّة المُنزّلة على الرُّسُل من قبله ﷺ، فهو الكتاب وهو المُعجزة معًا، الجامع لسعادة الدّارين بحيث صار خُلُقًا لك غالبًا على حركاتك وسكناتك[1].

القرآن هو الكتاب وهو المُعجزة

نكتة العدول عن (الآيات)، و(القرآن) إلى ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾:

﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾: هو الآيات نفسها التي ذُكرت سابقًا، ومجموعها القرآن الكريم، وعُدل عن لفظ الآيات، أو القرآن الّذي هو كالعَلَم عليه إلى لفظ الكتاب المعهود؛ لإيمائه إلى معنى تعظيمه بأنَّه المشتهر من بين كتب الأنبياء[2]، ولكونه ممّا يُتلى؛ فدلّ على حفظه

القرآن هو الكتاب المُشتهر بالتلاوة من بين كتب الأنبياء

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 457.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 14.

على مرّ العصور، لاستمرار تلاوته مع تغيّر الأزمنة والعصور، وهو أعلى شأنًا من معجزات الأنبياء، لأنَّ إدراك المتلوّ إدراك عقليّ فكريّ، وهو أعلى من المدركات الحسيَّة فكانت معجزةُ القرآن خالدة خلود الدّهر، وهي أليق بما يُستقبَل من عصور العلم الّتي تهيّأت إليها الإنسانيّة[1].

دلالة الاستئناف في: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾:

إنـــزال الكـتـاب إشـعـارٌ بمبتدأ تلاوته

قوله: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ جملة مستأنَفَةٌ، لكمال الاتّصال بين الجملتين؛ جملة إنزال الكتاب وجملة تلاوته، فكان إنزال الكتاب عليهم مبتدأ تلاوته عليهم، والمُخاطبون هم أهل مكّة ومَن أتى بعدهم إلى قيام السّاعة.

غرض بناء الفعل ﴿يُتْلَىٰ﴾ للمفعول:

تـــلاوة الـكـتـاب آية ومعجزة من معجزاته

قوله: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾، أي: يُقْرَأ عليهم[2]، فحصل من مادَّة ﴿يُتْلَىٰ﴾ ومن صيغة المضارع دلالةٌ على عموم الأمكنة والأزمنة، وقد أشار قوله: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ وما بعده إلى مزايا معجزة القرآن على غيره من المعجزات، منها: ما أشار إليه قوله: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ من انتشار إعجازه وعمومه في المجامع والآفاق والأزمان المختلفة بحيث لا يختصّ بإدراك إعجازه فريق خاصٌّ في زمن خاصٍّ شأنَ المعجزات المشهودة؛ مثلِ عصا موسى، وناقة صالح، وإبراء الأكمه، فهو يُتْلَى، ومن ضمن تلاوته الآياتُ الّتي تَحَدَّتِ النّاسَ بمعارضته، وسجَّلَتْ عليهم عجزهم عن المعارضة من قَبْلِ محاولتهم إيّاها؛ فكان الأمر كما قال هذا الكتاب الّذي يُتْلَى، فهو معجزة باقية خالدة إلى قيام السّاعة، والمعجزات الأخرى معجزات زائلة[3]، وقوله: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾

(1) أبو عُبَيدة، مجاز القرآن: 2/ 108.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 15.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 15.

دليل على أنّ القرآن من كبار آيات النّبيّ ﷺ[1]، وهي معجزة عقليّة لا حسيّة؛ لذلك فإنّها تُحاجِجُ كلَّ ذي عقل؛ وهي للنّاس كافّة.

دلالة المضارع ﴿يُتْلَىٰ﴾:

تلاوة القرآن مستمرةٌ على مدى العصور والأزمان

اختير المضارع في قوله تعالى: ﴿يُتْلَىٰ﴾ دون الوصف بأنْ يُقال: (متلوًّا) عليهم، لِما يُؤْذِنُ به المضارع من الاستمرار، ودلالة الصّيغة هنا دوام تلاوته في كلِّ زمانٍ ومكانٍ من كل تالٍ مصدقًا لِما في الكتب القديمة من نعته ﷺ وغيره من الآيات الدّالة على صدقه؛ فلا يزالُ معهم آيةٌ ثابتة لا تزولُ ولا تضمحلُّ كما تزولُ كلُّ آيةٍ بعدَ كونِها، وتكونُ في مكانٍ دونَ مكانٍ[2]، وأنَّ كون القرآن كتابًا متلوًّا مستطاعًا إدراكُ خصائصه لكلّ عربيّ، ولكلّ من حَذِقَ العربيّة؛ يُبعده عن مشابهة نفثات السَّحرة والطَّلاسم[3]، وتكون مُعجزته في تلاوته وتيسيره للذّاكرين، فهو رحمة وذكرى للمؤمنين، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ﴾ [القمر: 22].

بلاغة التتميم في قوله: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾:

يُتلى القرآنُ؛ لأنّه كتابٌ ومعجزةٌ عقليّة

قوله تعالى: ﴿أَنَّآ أَنزَلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي أنّنا أنزلنا القرآن ليُتلى عليهم، وفي التَّعليل تتميم لما اقتضاه التَّعبير بالكتاب وبـ ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾[4]، فهو كتابٌ يُتلى إلى قيام السّاعة، محفوظ بقدرة الله من التّحريف؛ فتكمن فيه المُعجزات.

نكتة تعدية التّلاوة بحرف الاستعلاء:

أثر القرآن على النّفوس والقُلوب

عُدّي لفظُ التّلاوة في قوله: ﴿يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾ بحرف الاستعلاء (على)؛ للدّلالة على عُلوِّ هذا الكتاب وسماويَّته، وفي ذلك بيانٌ لعظيم شأن القرآن، وكبير أثره على النّفوس والقُلوب، وهم علموا

(1) القصّاب، النُّكت الدّالّة على البيان: 3/ 593.

(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 457، وأبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 43، والقونَويّ وابن التمجيد، حاشيتان على تفسير البَيضاويّ: 15/ 74.

(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 14 - 16.

(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 15.

أنّه الحقُّ من ربّهم؛ لِما أحدثه في نفوسهم من الأثر الكبير، فأخبر أن الكتاب آية من آياته، كافٍ في الدّلالة، قائم مقام معجزات غيره، وآيات مَنْ سواه مِنَ الأنبياء[1]، فعلموا أنّه ليس بقول شاعر ولا كاهن، وأنّه ليس من عند بشر قطعًا.

نكتة فصل قوله ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾:

الانفصال اللّفظي يُغطّيه الاتصال المعنويّ في الدّلالة على أنّ القرآن رحمة للمؤمنين

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾؛ جملةٌ فُصِلَتْ عن سابقتها الّتي تناولت الحديث عن القرآن الّذي يُتلى عليهم، لِما بين الجملتين من شِبْه كمال الاتّصال؛ لاتّفاقهما من حيث الخبريّة؛ فالقرآن يُتلى عليهم، وهو رحمة للمؤمنين منهم، والقرآن فيه المعجزات الّتي لها الأثر الأكبر على قُلوب المؤمنين؛ فتزيدهم إيمانًا وراحةً وانسجامًا في الحياة، وجملة: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾ واردةٌ موردَ التّعليل للتّعجيب من عدم اكتفائهم بالكتاب[2]؛ فالجملة الثّانية تعليل لِما سبقها.

غرض توالي المؤكّدات في فاصلة الآية:

القرآن هو الرّحمة المهداة لأمة محمّد ﷺ

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾ توالت المؤكّداتُ ﴿إِنَّ﴾، و(اسم الإشارة)، و(اللّام) وهي دليلٌ على ما في القرآن من رحمة للمؤمنين، وذكرى دائمة لهم، وليكون ذلك خطابًا بيّنًا للّذين لا يؤمنون؛ ممّن أنكروا القرآن وآياته؛ فتأتي المؤكّدات لفائدة إزالة الشّكّ من صدق الرّسالة الّتي جاء بها خاتم المرسلين.

توجيه الظّرفيّة المجازيّة بـ﴿فِي﴾:

الكتاب رحمة للنّاس بشرط الإيمان

جاءت ﴿فِي﴾ في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ للظّرفيّة المجازيّة، وأصل مجيئها لاحتواء الشّيء فكأنّه في وعائه، فيكون المعنى: إنّ في آيات اللّه الّتي تُتلى عليهم احتواءً للرحمة والذّكرى لقوم يؤمنون باللّه وبرسالته وكتابه، ولا تكون تلك الرّحمة إلا بتحقيق شرط الإيمان.

(1) السّيوطيّ، الإتقان: 4/ 4.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 15.

نكتة التّعبير باسم الإشارة البعيد:

معنى قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾، أي: الكتاب العظيم الشّأن الباقي، وقيل: الّذي هو حجّة بيّنة[1]، فالإشارة بـ﴿ذَٰلِكَ﴾ إلى ﴿ٱلْكِتَٰبَ﴾ ليستحضر صفاته كلّها، وللتّنويه به بما تقتضيه الإشارة من التّعظيم[2]، وفي هذه الإشارة دلالةٌ على رفعة شأن هذا القرآن بجعله بعيدًا في المنزلة.

القرآن حجّة بيّنة، رفيعٌ عالي المنزلة

غرض تقديم شبه الجملة ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾:

في قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾ قدَّم البيان الإلهيُّ شبه الجملة الجارَّ والمجرور: ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾ المتعلّقان بخبر مقدَّم؛ على اسم ﴿إِنَّ﴾: ﴿لَرَحْمَةً﴾؛ وذلك لفائدة الاهتمام بما تمّ تقديمه وتعظيمه، وتخصيص الإشارة به إلى الرّحمة الّتي يَكْتَنِفُها تَنَزُّلُ آيات القرآن وتلاوتُها عليهم.

الاهتمام بما تمّ تقديمه لتعظيم الرّحمة الّتي تكتنفها آيات القرآن

معنى اللّام في قوله: ﴿لَرَحْمَةً﴾:

(اللّام) في قوله: ﴿لَرَحْمَةً﴾؛ للتّأكيد، فأكّد حصول الرّحمة للمؤمنين بِتَنَزُّلِ آياتِ القرآن الكريم على رسول الله ﷺ وتلاوتِه على المؤمنين، لِما سيكون لتلك التّلاوة من شأن عظيم في نفوس المؤمنين على مدى الدّهر إلى قيام السّاعة.

تأكيد حصول الرّحمة بِتَنَزُّلِ آياتِ القرآن

نكتة تنكير ﴿لَرَحْمَةً﴾:

تنكير كلمة ﴿لَرَحْمَةً﴾ في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾؛ للتّعظيم؛ أي: لا يُقادَرُ قَدْرُها، فالكتاب المَتْلوُّ مشتملٌ على ما هو رحمةٌ لهم؛ اشتمالَ الظَّرفِ على المظروف؛ فالقرآن مع كونه معجزةً دالّةً على صدق الرَّسول ﷺ ومرشدةً إلى تصديقه؛ فهو أيضًا مثلُ غيره من المعجزات، يُعَدُّ وسيلةَ عِلْمٍ وتشريعٍ وآدابٍ لِلْمَتْلوِّ عليهم، ويتجدّد

كـونُ القرآنِ معجزةً؛ جَعَلَتْهُ للعبادِ رحمةً؛ يَعْظُمُ أثَرُها، ولا يُقادَرُ قدرُها

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 7.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 15.

شأنُ معجزتِه مع الزّمن إلى قيام السّاعة، وبذلك فضُلَ غيرَه من المعجزات الّتي لا تفيد إلّا تصديق الرَّسول الآتي بها[1].

ثمّ إنّ قوله تعالى: ﴿لَرَحْمَةً﴾ فيه إشارةٌ إلى أنّا جعلنا القرآن معجزةً رحمةً منّا على العباد؛ ليَعلَموا بها الصّادق المأمون من الكاذب المدّعي، وهذا لأنّا بيّنا أنّ إظهارَ المعجزة على يد الصّادق رحمةٌ من اللّه، وكان له ألّا يُظْهِرَها فيبقى الخَلْقُ في ورطةِ تكذيبِ الصّادق أو تصديق الكاذب؛ لأنَّ أيَّ نَبيٍّ لا يتميّز من مُدَّعي النّبوّة المُتَنَبّي لولا المعجزة، لكنّ اللّهَ له ذلك، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد[2].

غرض عطف ﴿وَذِكْرَىٰ﴾:

بـقـاء مـعـجـزة الـقـرآن مـا بقي الزّمان

قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يؤكّد أنّه يُتلى في عصره ﷺ وفي العصور الّتي تأتي بعده؛ وقوله: ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ إشارة إلى أنَّه معجزة باقية يتذكَّر بها كلُّ من يكون ما بقي الزَّمان[3]، فإنَّ القرآن مشتملٌ على مواعظَ ونُذُرٍ، وتعريفٍ بعواقب الأعمال، وإعدادٍ إلى الحياة الثّانية، ونحو ذلك ممّا هو تذكيرٌ نافعٌ، ويكون في تَذَكُّرِه خيرُ الدّارين[4].

دلالة التّعبير بـ﴿وَذِكْرَىٰ﴾ مادّة وصيغة:

نـزول الـقـرآن شـرفٌ عـظـيـمٌ لأهـل مـكّـة والمدينة

قوله: ﴿لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ﴾؛ معنى ذِكرى: ذكرتُ الشَّيء، بخلاف نسيتُه، ثُمَّ حُمِلَ عليه الذِّكر باللّسان، والذِّكر أيضًا: العَلاء والشّرف، وهو قياس الأصل[5]، ومن هنا فقد كان في نزول القرآن الكريم شرفٌ عظيمٌ للّذين آمنوا من أهل مكّة، وشرفٌ عظيمٌ للّذين آمنوا من أهل المدينة قبل هجرة الرّسول ﷺ إليها أو بعدها، وتكون الذِّكْرَى بِمَعْنَى

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 15.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 65.
(3) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 65.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 15.
(5) ابن فارس، مقاييس اللّغة: 2/ 358 - 359.

الذِّكْر بخلاف النّسيان، كما في الآية هنا: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ وتكون بِمَعْنى التَّذكير كما في قَوْله تعالى في سورة ص: ﴿وَٱذْكُرْ عِبَٰدَنَآ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ أُوْلِى ٱلْأَيْدِى وَٱلْأَبْصَٰرِ ۝٤٥ إِنَّآ أَخْلَصْنَٰهُم بِخَالِصَةٍ ذِكْرَى ٱلدَّارِ ۝٤٦﴾ [ص: 45 - 46][1].

غرض تقديم الرّحمة على الذّكرى:

عموميّة الرّحمة وخصوصيّة الذّكرى

في قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ﴾ قدّم البيان الإلهيّ الرّحمة على الذّكرى لأنّ الرّحمة تعمّ جميع المؤمنين، فمن قرأ شيئًا من القرآن أو استمع للتّلاوة أصابته رحمة الله، أمّا الذّكرى فتكون للمتدبّرين للتّلاوة المستمعين للآيات، فهي تختصّ بمن تَدَبّر عند التّلاوة والسّماع، فقدّم العامّ على الخاصّ.

معنى اللّام في قوله: ﴿لِقَوْمٍ﴾:

تخصيص مجتمع المؤمنين بالرّحمة

اللّام في قوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ حرف جرٍّ بمعنى الاختصاص؛ إذْ قد خصّ البيان الإلهيّ القوم المؤمنين بهاتين الميّزتين وهما الرّحمة والذّكرى؛ فالرّحمة أقرب للمجتمعات من الأفراد؛ وذلك لِما في المجتمع من القدرة على المحافظة والدّيمومة لقضيّة الإيمان، أمّا التّذكير ففي ما بين أفراده.

نكتة تنكير ﴿لِقَوْمٍ﴾:

بالمجتمع المؤمن يصونُ المؤمنون دينهم، وأنفسهم

في قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ أفاد التّنكير في كلمة ﴿لِقَوْمٍ﴾ إرادةَ عموم جماعة المؤمنين، وإظهارَ فائدة أنْ يعيش المؤمن في مجتمع مؤمن، يصون فيه دينه ونفسه، ويكون مثل أقرانه المؤمنين، أو إنّ التّنكير أفاد مدح جماعة المؤمنين، أي إنّ كلّ مجتمع مؤمن، يحيا بالإيمان ويموت على الإيمان.

(1) الأزهريّ، تهذيب اللّغة: (ذكر).

دلالة التّعبير بالمضارع ﴿يُؤْمِنُونَ﴾:

القوم الباحثون عـــن دلائـــل الإيمان

الفعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ في قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ قد يُراد به الزّمن المستقبلُ، ويجوز أن يراد به الحال بالنظر إلى كون ﴿لَرَحْمَةً وَذِكْرَىٰ﴾ ممّا تنازعا التعلّق في الجارّ والمجرور ﴿فِي ذَٰلِكَ﴾[1]، وقوله: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ دون (للمؤمنين) لِما في لفظ قوم من الإيماء إلى أنّهم قومٌ شعارُهم أن يؤمنوا؛ لاهتماهم بالنّظر والإنصاف، فهم يبحثون عن الحقيقة، فإذا قامت لهم دلائل الإيمان آمنوا ولم يكابروا ظلمًا وعلوًّا، فالفعل ﴿يُؤْمِنُونَ﴾ يرادُ به الحال القريبة من الاستقبال، كما أنّ فيه تعريضًا بالّذين لم يكتفوا بمعجزته، واقترحوا آياتٍ أخرى لا نسبة بينه وبينها[2].

توجيه قوله تعالى ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾:

الرّحمة مختصّةٌ بالمؤمنين

قوله تعالى: ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾ يعني أنّ هذه الرَّحمة المؤكّدة، والّتي جرى الاهتمام بها بإشارةٍ مقدَّمةٍ: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَرَحْمَةً﴾؛ لَهيَ مختصّة بالمؤمنين؛ لا تَتَعَدّاهم، لأنّ المعجزة كانت غضبًا على الكافرين؛ لأنَّها قَطَعَتْ أعذارَهم، وعَطَّلَتْ إنْكارَهم[3].

مزايا القرآن الكريم التي ذكرتها الآية:

عـظـمـة أثـر الرّحمة والذِّكرى في الـحـثّ على الإيمان

قوله تعالى في أوّل الآية: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ﴾ تعبيرٌ عن آية القرآن العظيمة الّتي هي مُغْنِيَةٌ عن سائر الآيات؛ إن كانوا طالبين للحقّ، غير متعنّتين، لأنّ هذا القرآن الّذي تدوم تلاوته عليهم في كلّ مكان وزمان؛ آيةٌ ثابتة لا تزول ولا تَبْلى، وإنّ في مثل هذه الآية الموجودة في كلّ مكان وزمان إلى آخر الدّهر؛ لنعمةً عظيمة لا يَبْلُغُ أحدٌ شُكْرَها، وتذكرةً ﴿لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾[4]؛ إذْ عُلِّقَ بالرَّحمة والذِّكرى قوله: ﴿لِقَوْمٍ

(1) الآلوسي، روح المعاني: 11/ 7.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 16.
(3) الأعظميّ، أسماء القرآن، ص: 78.
(4) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 463.

يُؤْمِنُونَ﴾؛ للإشارة إلى أنَّ تلك منافعُ من القرآن زائدةٌ على ما في المعجزات الأخرى من المنفعة الّتي هي منفعة الإيمان، وهو أعظم ما يمكن أنْ يحقّقه الإنسان في هذا الوجود، فهذه مزايا عظيمةٌ لمعجزة القرآن، حاصلةٌ في حضرة الرّسول ﷺ وغَيْبَتِه[1].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 21/ 16.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»